شيئاً آخر ، وكل شيء فيه تغيير إلى الخير يصح فيه المَحْو والإثبات ، وهو من عند الرقيب العتيد :

﴿ ما يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [ق]

أى : أنه القادر على أن يأمر الرقيب والعتيد بأن يُثبتا الواجبات والمحرمات ، وأنْ يتركا الأمور المباحة ، وهو القادر على أنْ يمحوَ ما يشاء من الذنوب ، ويُثبت ما يشاء من التوبة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ (١) أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ (٤٠) ﴾

هذه الآية تُحدِّد مهمة الرسول ﷺ فى أن يُبلِّغ منهج الله ، فمَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر ، إلا أن قول الحق سبحانه فى رسوله ﷺ :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

جعله هذا القول متعلقاً بهداية قومه جميعاً ، وكان يرجو أن يكون الكل مهتدياً ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله فى موقع آخر :

---

(١) أى : نريهم بعض الذى نعدهم من العذاب ، مثل قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٤) ﴾ [الرعد] . وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ .. (٣١) ﴾ [الرعد] .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا[2] ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

أى : أنك لستَ مسئولاً عن إيمانهم ، وعليك ألاَّ تحزن إنْ لم ينضمُّوا إلى الموكب الإيمانى ، وكُلُّ ما عليك أن تدعوهم وتُبلِّغهم ضرورة الإيمان ؛ والحق سبحانه هو الذى سوف يحاسبهم إما فى الدنيا بالمحو والإذهاب ، أو فى الآخرة بأن يَلْقَوْا عذاب النار .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الرعد]

فنحن نعلم أن كل دعوة من دعوات الخير تكبُر يوماً بعد يوم ؛ ودعوات الشر تبهت يوماً بعد يوم . ومَنْ يدعو إلى الخير يُحب ويتشوق أنْ يرى ثمار دعوته وقد أينعت[3] ، ولكن الأمر فى بعض دعوات الخير قد يحتاج وَقْتاً يفوق عمر الداعى .

ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الرعد]

أى : اغرس الدعوة ، ودَعْ مَنْ يقطف الثمرة إلى ما بعد ذلك ، وأنت حين تتفرَّغ للغَرْس فقط ؛ ستجد الخير والثمار تأتى حين يشاء الله ؛ سواء شاء ذلك إبَّان حياتك أو من بعد موتك .

وأنت إذا نظرتَ إلى الدعوات التى تستقبلها الحياة ستجد أن لكل

---

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] .

(٢) الأسف : هو الحزن مع الغضب . والأسيف والأسوف : السريع الحزن الرقيق . والأسف : الغضبان المتلهف على الشىء . [لسان العرب - مادة : أسف] .

(٣) أينع الثمر : أدرك ونضج وحان قطافه . [القاموس القويم ٢/٣٧٣] .

دعوة أنصاراً أو مؤيدين ، وأن القائمين على تلك الدعوات قد تعجَّلوا الثمرة ؛ مع أنهم لو تمهَّلوا ليقطفها مَنْ يأتى بعدهم لنَجحتْ تلك الدعوات .

ونحن فى الريف نرى الفلاح يغرس ؛ ومن خلال غَرْسه نعرف مراداته ، هل يعمل لنفسه ، أو يعمل من أجل من يأتى بعده ؟

فَمنْ يغرس قمحاً يحصد بسرعة تفوق سرعة مَنْ يغرس نخلة أو شجرة من المانجو ، حيث لا تثمر النخلة أو شجرة المانجو إلا بعد سنين طويلة ، تبلغ سبع سنوات فى بعض الأحيان ، وهذا يزرع ليؤدى لِمَنْ يجىء ما أداه له مَنْ ذهبَ .

ونحن نأكل منْ تَمْر زَرَعه لنا غيرنا ممَّنْ ذهبوا ، ولكنهم فكَّروا فيمَنْ سيأتى من بعدهمً ، ومَنْ يفعل ذلك لابُدَّ وأن يكون عنده سعَة فى الأرض التى يزرعها ؛ لأن مَنْ لا يملك سعَة من الأرض فهو يفكر فقط فيمَنْ يعول وفى نفسه فقط ؛ لذلك يزرع على قَدْر ما يمكن أن تعطيه الأرض الآن .

أما مَنْ يملك سعَة من الأرض وسعَة فى النفس ؛ فهو مَنْ وضع فى قلبه مسئولية الاهتمام بمَنْ سيأتون بعده . وأنْ يردّ الجميل الذى أسداه له مَنْ سبقوه ، بأن يزرع لغيره ممَّنْ سيأتون من بعده .

ودعوة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ شهدتْ له بأنه لم يبحثْ لنفسه عن ثمرة عاجلة ؛ بل نجد الدعوة وهى تُقابل الصِّعاب تلْو الصعاب ، ويَلْقى ﷺ ما تلقَّى من العنت والإرهاق والجهد ؛ بعد أنْ جهر بالدعوة فى عشيرته الأقربين .

ثم ظلَّتْ الدعوة تتسع فى بعض العشائر والبطون إلى أن دالت[1]

---

(١) الإدالة : الغلبة . وأدالنا الله من عدونا : من الدولة . ويقال : أديل لنا على أعدائنا أى نُصرنا عليهم . [لسان العرب ـ مادة : دول] .

عاصمة الكفر ؛ وصارت مكة بيت الله الحرام كما شاء الله ، وأسلمتْ الجزيرة كلها لمنهج الله . وأرسل ﷺ الكتب إلى الملوك والقياصرة ، وكلها تتضمن قوله ﷺ « أسلم تسلم » .

ودلَّتْ هذه الكتب على أن الدعوة الإسلامية هى دعوة مُمتدَّة لكل الناس ؛ تطبيقاً لمَا قاله الحق لرسوله ﷺ أنه : « رسول للناس كَافَّة » .

قال تعالى :

﴿ وما أرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً ونَذِيراً .. (٢٨) ﴾ [سبأ]

وفَهم الناس الفَارق بين رسالته ﷺ وبين كَافَة الرسالات السابقة ، فإلى قوم عاد أرسل هوداً عليه السلام .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً .. (٦٥) ﴾ [الأعراف]

وقال عن أهل مَدْين :

﴿ وإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]

وقال عن بَعْثة موسى :

﴿ ورَسُولاً إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

وهكذا حدَّد الحق سبحانه زمان ومكان القوم فى أىِّ رسالة سبقتْ رسالة محمد بن عبد الله ﷺ .

لكن الأمر يختلف حين أرسل سبحانه محمداً ﷺ رسولاً وجعله للناس كافَّة ، فقد علم سبحانه أزلاً أن هذا هو الدين الخاتم ؛ لذلك أرسل رسول الله إلى حُكَّام العالم ـ المعاصرين له ـ دعوةً لدخول الدين الخاتم .

وقد ترك الرسول ﷺ تلك المهمة لمَنْ يخلفونه ، ودعا ﷺ الجزيرة العربية تحت لواء « لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » بعد أن كانت قبائل متعددة .

كل قبيلة كانت لا تُلزم نفسها بعبادة إله القبيلة الأخرى ؛ وكل قبيلة لا تلزم نفسها بتقنينَ القبيلة الأخرى ، ولم يجمعهم أبداً شَمْل ، ولا استيطانَ لهم إلا فى بعض القُرَى ، ذلك أن أغلبهم من البَدْو الرُّحَّل ؛ كل واحد منهم يحمل بيته - الخيمة - على ظهر بعيره ، ويمشى بحثاً عن الكلأ والماء لأغنامه وماشيته .

فلم يكن عندهم انتماء وطنى ؛ فضلاً عن القبائل التى كانت تتقاتل فيما بينها فى تارات عنيفة ، وامتدت الحرب فيما بين بعض القبائل إلى أربعين عاماً فى بعض الأحيان .

استطاع ﷺ أن يُوظِّف ما كانوا عليه من تدريب وعَتَاد وعُدَّة لنُصْرة دين الله ؛ فحين إعداده للغزوات أو اختياره السرايا[1] كان يجد المقاتلين فى كامل لياقتهم .

وحين استدعاهم إلى الحرب لم يُجْر لهم تدريبات ؛ فقد كان الكل مُدرَّباً على القتال .

وهكذا صارتْ القبائل أمة واحدة بعد أن جمعهم محمد رسول الله ﷺ فى وحدة التكامل العقدى تحت راية الإسلام ، وهذه الأمة الأمية ، قال فيها الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ[2] رَسُولاً مِّنْهُمْ.. (٢)﴾ [الجمعة]

---

(١) السرايا : جمع سرية ، وهى القطعة من الجيش ، ما بين خمسة أنفس إلى ثلثمائة . سُميت سرية لأنها تسْرى ليلاً فى خفية . [لسان العرب - مادة : سرا] .

(٢) الأميون : هم العرب . قال ابن منظور فى اللسان (مادة : أمم) : « قيل للعرب الأميون ، لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة ، فهم على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب ، فهم على جبلتهم الأولى » .

وكانت هذه الأمية شرفاً لهم كَيْلا يُقَال : إنهم أصحاب قَفْزة حضارية من أمة مُتمدينة . وكانت هذه الأمية مُلْفتة ، لأن ما جاء فى تلك الأمة من تشريعات وقفتْ أمامه الأمم الأخرى إلى زماننا هذا باندهاش وتقدير .

وشاء الحق سبحانه لهذه الأمة أن تحملَ رسالة السماء لكل الأرض ، وبعد أن نزل قول الحق سبحانه :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣) ﴾ [المائدة]

فَهِم بعض الناس أن الرسول ﷺ ينعى نفسه لأمته[1] .

ومن بعد رحيله ﷺ إلى الرفيق الأعلى انساح صحابته بالدين الخاتم فى الدنيا كلها ، وخلال نصف قرن من الزمان صار للإسلام جناحان ؛ جناح فى الشرق ، وجناح فى الغرب . وهزم أكبر امبراطوريتين متعاصرتين له ؛ هما امبراطورية فارس بحضارتها وامبراطورية الروم .

وكانت البلاد تتخطَّف الإسلامَ كمنهج حياة ، حدث ذلك بعد أن حارب الإسلامُ الامبراطوريتين فى آنٍ واحد ، وأقبل الناس على الإسلام ليتحقَّقوا من معجزته التى لَمَسُوها فى خُلُق مَنْ سمعوا القرآن وحَملوا رسالته ؛ ثم فى اكتشافهم لعدالة القرآن فى إدارة حركة الحياة .

---

(١) أخرج ابن جرير عن السدى فى قوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ .. (٣) ﴾ [المائدة] . قال : « هذا نزل يوم عرفة ، فلم ينزل بعدها حرام ولا حلال ، ورجع رسول الله ﷺ فمات » . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ١٩) .

وهكذا اكتشفوا أن معجزة الإسلام عقلية ؛ وأن رسوله ﷺ هو الرسول الخاتم الذى لم يأتِ لهم بمعجزة حسِّية ، وإذا كان القرآن معجزة فى اللغة للقوم الذين نزل فيهم رسولَ الله ﷺ ؛ فالقرآن لمَنْ لم يعرفوا لغة القرآن كان معجزة فى العدالة والقيم النابعة منه .

وكان الناس يندفعون إلى الإسلام بقوة دَفْع من المؤمنين به ، وبقوة جَذْب من غير المؤمنين ؛ حين يروْنَ ألاَّ فَرْق بين الأمير وأصغر فَرْد تحت رايته ، وحين يلمسون عدالته ومساواته بين البشر .

ولم يكن الإسلام معجزة لقومه فقط ؛ بل لكل الدنيا ، ويتحقق دائماً قول الحق سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ[1] وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۝ (٥٣) ﴾ [فصلت]

ونجد مُفكّراً كبيراً من الغرب المعاصر يعلن إسلامه ، رغم أنه لم يقرأ القرآن ؛ بل نظر فقط فى المبادىء التى قَنَّنها الإسلام ، وكيف تحمل حلولاً لمَا عجزتْ عنه الحضارات المتعاقبة وأهل القوانين فى كل بلاد الأرض .

ويعرف أن تلك القوانين قد جاءتْ لرسول ينتمى لأمة لم تبرعْ إلا فى البلاغة والأدب ، وتضع تلك القوانين حلولاً لمشاكل تعانى منها الدنيا كلها .

ورأينا كيف بحثَ رجل عن أعظم مائة فى تاريخ البشرية ، وكيف جعل محمداً ﷺ أوّلهم ، وهذا الباحث لم يقرأ القرآن ؛ ولكنه درسَ

---

(١) الآفاق : جمع أفق ، وهو الناحية ، وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين . [القاموس القويم ١/٢٢] .

آثار تطبيق القرآن ، وبعد أنْ يُعجبَ بالمنهج القرآني نجده يُعجب بالنص القرآني .

والمثل : هو دراسة الألمان لعملية إدراكات الحسِّ ؛ وكيف يشعر الإنسان بالألم ؟ وكيف يلمس الإنسان ببَشْرته بمَلْمسٍ ناعم فيُسَرّ منه ، ثم يلمس شيئاً خشناً فيتأذى منه .

واستمر الألمان يدرسون ذلك لسنوات ؛ كي يعرفوا مناطَ الإحساس وموقعه في الإنسان ، هل هو في المُخِّ أم أين ؛ إلى أن انتهوا إلى أن منَاطَ الإحساس في كُلِّ إنسان هو في الجلْد ، وأنها خلايا مُنبسطة تحت الجلْد مباشرة ؛ بدليل أن الإبرة حين نَغرزها في جسم الإنسان ؛ فهو يتألم فقط في منطقة دخولها ؛ وليس أكثر .

ولفتَ ذلك نظر أحد العلماء ؛ فقال : لقد تحدث القرآن عن ذلك حين قال :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ[1] جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

ولو أن تلك الجلود قد احترقتْ ؛ فالعذاب سينتهي ؛ لذلك يُبدِّل الله جلودهم ليستمر العذاب ، وهذا مَثَلٌ واحد من أمثلة ما كشف عنه القرآن .

ومن الأمثلة المعاصرة في العلوم الجنائية قصة شاب مسلم من سوهاج سافر إلى ألمانيا ليُعد رسالة الدكتوراه في القانون ، ووجدهم

(١) قال ابن عمر في تفسير الآية : « إذا احترقت جلودهم بدلناهم جلوداً بيضاء أمثال القراطيس » أورده السيوطي في الدر المنثور (٢/٥٦٨) .

يقفون عند قضية التعسُّف[١] فى استعمال الحق ، ويعتبرونها من أهم الإنجازات القانونية فى القرن العشرين .

فأوضح لهم هذا الشاب أن الإسلام قد سبقهم فى تقدير هذه المسألة ووضع الحكم المناسب فيها من أربعة عشر قرناً من الزمان .

وروى لهم أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ قائلاً : إن لفلان عندى فى ساحة بيتى نخلة ، وهو يدخل بيتى كل ساعة بحجة رعاية تلك النخلة ؛ مرة بدعوى تأبيرها[٢] ؛ وأخرى بدعوى جَنْى ثمارها ، وثالثة بدعوى الاطمئنان عليها حتى جعل النخلة شُغله الشاغل .

وشكا الرجل للرسول ﷺ أنه يتأذى هو وأهل بيته من اقتحام الرجل للحياة الخاصة له ، فأرسل ﷺ إلى صاحب النخلة وقال له : « أنت بالخيار بين ثلاثة مواقف : إما أن تهبه النخلة ـ وتلك منتهى الأريحية ـ ، وإما أنْ تبيعها له ، وإما قطعناها »[٣] .

وهكذا وضع ﷺ قواعد للتعامل فيما يسمى « التعسُّف فى استعمال الحق » .

وفى انجلترا وجدوا أن القانون التجارى مليء بالثغرات ، ومثال هذا أن التعامل فى السوق قد يتطلب بعضاً من المرونة بين التجار ؛ فهذا يرسل لذاك طالباً من الآخر ألفاً من الجنيهات ؛ وفلان يردُّ ما أخذه أو يقايضه .

---

(١) التعسف : إساءة استعمال الحق مع ظلم وعدم رويّة أو دراية .

(٢) أبر النخلة والزرع : أصلحه ، وتأبير النخل : تلقيحه . [لسان العرب ـ مادة : أبر] .

(٣) عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن لفلان نخلة فى حائطى فمره فليبعنيها أو ليهبها لى قال : فأبى الرجل فقال رسول الله ﷺ « افعل ولك بها نخلة فى الجنة فأبى فقال النبى ﷺ : « هذا أبخل الناس » .

واصطدم الواقع بأن بعض التجار لا يعترفون ببعض الديون التجارية التى عليهم ، وقديماً كان إذا أراد تاجر أن يقترض من زميل له ؛ فهو يكتب الدَّيْن فى كمبيالة أو إيصال أمانة ؛ وذلك لتوثيق الدَّيْن .

ولكن الأمر اليومى فى السوق قد يختلف ؛ فهذا يحتاج نقوداً لأمر عاجل ، وزميله يثق فى قدرته على الردِّ والتسديد ؛ لأنه قد يحتاج هو الآخر لنقود عاجلة ، ويثق أن مَنْ يقرضه الآن ، سيقرضه فيما بعد ؛ ولذلك أنشأوا ما يُسمَّى بالدَّيْن التجارى ، فيفتحون « دفتراً » يُسجِّلون فيه الديون التجارية ؛ لتحكم الدفاتر فيما يعجز عن تذكُّره الأشخاص .

وذهب شاب مسلم لبعثة دراسية هناك ؛ وأوضح لهم أن قضية الدِّين أخذت اهتمام الإسلام ؛ لدرجة أن أطول آية فى القرآن هى الآية التى تحدد التعامل مع الديون ؛ وأخذ يترجم لهم قول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ[1] مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا[2] أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن

---

(١) البخس : النقص . يقول تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ .. ⟨٢٠⟩ ﴾ [يوسف] أى : ناقص دون ثمنه . [لسان العرب - مادة : بخس] .

(٢) السفيه : الناقص العقل السيء التصرف . [القاموس القويم : ١/ ٣١٧] . وقال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٣٥) : « أى محجوراً عليه بتبذير ونحوه » .

تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ(١) إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا(٢) أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ(٣) أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

وظاهر الأمر أنه يحمى الدائن ، ولكن الحقيقة أنه يحمى المدين أيضاً ؛ لأن المدين إنْ علم أنَّ الدَّيْن مُوثَّق ؛ فهو سيسعى جاهداً أن يؤديه فى موعده ، وأيضاً كى لا يأخذ النصَّابون فرصة للهرب من السداد ، وبذلك حمى القرآنُ الدائن والمدين معاً كى لا تقف حركة التعامل بين الناس .

ومع هذا فإنه لم يمنع الأريحية الإيمانية والمروءة أن تسلك طريقها فى عالم الود والإخاء المؤمن ؛ فإنْ كان لك قريب أو إنسان لك به صلة ، وأنت تأمنه على ما اقترض منك ؛ يقول لك الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ .. (٢٨٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) الضلال : النسيان . [لسان العرب ـ مادة : ضلل] .

(٢) سئم الشيء : ملَّه وضجر منه وأحسَّ بفتور نحوه . قال تعالى : ﴿ وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] .

(٣) الجناح : الإثم والذنب . قال تعالى : ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا .. (١٥٨) ﴾ [البقرة] أى : لا إثم ولا حرج عليه بل له الثواب والأجر العظيم . [القاموس القويم ١/١٣١] .

وبهذا القول يشعر مَنْ يحمل أمانة من الغير بالخجل ؛ فيعمل على رَدِّها . ثم يضيف الحق سبحانه :

﴿ إلاَّ أن تكُون تجارةً حاضرةً تُديرُونها بيْنكُمْ فليْس عليْكُمْ جُناحٌ ألاَّ تكْتُبُوها .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

وهكذا جاء الإسلام بقوانين لا يمكن أن تخرج من أمة أُميَّة ؛ لأنها قوانين تسبق العصور ، وهى قوانين تنبع من دين سماوى خاتم . ولذلك عندما سألونى عن موقف الإسلام من التقدمية والرجعية ، قلت لهم :

إن القياس خاطىء ؛ لأنك لن تستطيع أن تقيس فِكْر بشر بما أنزله رَبُّ كل البشر ، وإذا كان العالم بشَرْقه وغَرْبه يهتدى إلى أىّ خير تنتظم به حياته ؛ ويجد جذوراً لذلك الخير فى الإسلام ؛ فهذا دليل على أن العالم يتجه إلى الوسطية .

وكان المثل فى الشيوعية التى قامت ثورتها الدموية فى عام ١٩١٧ ؛ وقالوا : إنها مُقدِّمة للشيوعية ؛ وسقطتْ الشيوعية من بعد أن أصيب المجتمع الروسى بالتيبُّس والجمود ، والخوف من أسلوب حُكْم الحزب الشيوعى .

ونجد الرأسمالية الشرسة ، وهى تُهذِّب من شراستها ؛ وتعطى العامل حقَّه وتُؤمِّن عليه ، وهكذا يتجه العالم إلى الوسطية التى دعا لها الإسلام .

وقد نزل الإسلام من قِبَل عالمٍ عليمٍ بكل الأهواء وبكل المراحل .

ولذلك نجد الحق سبحانه وهو يُطمئنُ رسوله ﷺ إنْ آذاه أحدٌ فى المنهج الذى جاء به ؛ لأنه ﷺ لم يكن ليأبه بمَنْ يحاول أن يُؤذيَه فى شخصه ، وكان ﷺ لا يغضب لنفسه ؛ ولكن إنْ تعرَّض أحد للمنهج فغضبه ﷺ يظهر جلياً .

ومَنْ وقفوا ضد الدين قابلهم الرسول ﷺ بالدعوة ؛ فمَنْ آمن منهم نال حلاوة الإيمان ؛ ومَنْ لم يؤمن فقد توالتْ عليه المصائب من كل جانب ، منهم مَنْ رأى النبى ﷺ مصارعه .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) ﴾ [الزخرف]

أى : أنه جَلَّ وعلاَ إما أن يُلحق رسوله بالرفيق الأعلى ، وينتقم من الذين وقفوا ضده ؛ أو يُريه عذابهم رأى العين[1] .

وكأن هذا القول هو الذى يشرح قوله سبحانه هنا :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) ﴾ [الرعد]

وعذاب الدنيا ـ كما نؤمن ـ مَهْما بلغ فلن يصلَ إلى مرتبة عذاب الآخرة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٨) : « لم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكّمه فى نواصيهم ، وملكه ما تضمنته صياصيهم (حصونهم) . هذا معنى قول السدى واختاره ابن جرير » .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) ﴾

و « يرَوْا » هنا بمعنى « يعلمـوا » ، ولم يَقُلْ ذلك ؛ لأن العلم قد يكون علْماً بغيب ، ولكن « يروا » تعنى أنهم قـد علموا ما جاء بالآية علْم مشهد ورؤية واضحة ، وليس مع العين أيْن .

وإذا جاء قول الحق سـبحانه ليخبرنا بأمـر حدث فى الماضى أو سيـحدث فى المستـقبل ؛ ووجدنا فـيه فعل الرؤية ؛ فـهذا يعنى أننا يجب أن نؤمن به إيمان مَشْهد ، لأن قـوله سبحانه أوثق من الرؤية ، وعلمه أوثق من عينيك .

وسبق(١) أنْ قال الحق سبحانه لرسوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل]

ونعلم أن النبى ﷺ قد وُلد فى عام الفيل ، ولا يمكن أن يكون رأى ما حـدث لأصحاب الفـيل ، ولكنه صدَّق ما جـاء به القول الحق وكأنه رؤيا مَشْهدية .

وقال الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا .. (٤٥) ﴾

[الفرقان]

---

(١) قول فضيلة الشيخ هنا « سبق » هو باعتبار زمان ومكان نزول سورتى الفيل والرعد ، وليس باعتبار ترتيبهما فى المصحف ، فسورة الفيل مكية ، أما سورة الرعد فهى مدنية . (ع) .

وحين يُعبِّر القرآن عن أمر غيبى يأتى بفعل « يرى » مثل قوله الحق :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا[1] رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٢) ﴾ [السجدة]

وحين يتكلم القرآن عن أمر معاصر يقول :

﴿ أَفَلا يَرَوْنَ .. (٤٤) ﴾ [الأنبياء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد]

وهذا قول للحاضر المعاصر لهم .

وتعريف الأرض هنا يجعلها مجهولة ، لأننا حين نرغب فى أن نُعرِّف الأرض ؛ قد يتجه الفكر إلى الأرض التى نقف عليها ؛ وبالمعنى الأوسع يتجه الفكر إلى الكرة الأرضية التى يعيش عليها كل البشر .

وقد تُنسَبُ الأرض إلى بقعة خاصة وقع فيها حَدَثٌ ما ؛ مثل قول الحق سبحانه عن قارون :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص]

ويقول الحق سبحانه عن الأرض كلها :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ .. (٥٥) ﴾ [النور]

---

(١) نكَّس رأسه : طأطأه ذلاً وانكساراً . [القاموس القويم : ٢/٢٨٦] .

وبطبيعة الحال هم لن يأخذوا كل الأرض ، ولكن ستكون لهم السيطرة عليها .

وسبحانه يقول أيضاً :

﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ .. (٧٣) ﴾ [الأعراف]

وهكذا نفهم أن كلمة « الأرض » تطلق على بُقعة لها حدث خاص ، أما إذا أُطلقتْ ؛ فهى تعنى كل الأرض ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ[1] (١٠) ﴾ [الرحمن]

ومثل قوله تعالى لبنى إسرائيل :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ[2] لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

مع أنه قد قال لهم فى آية أخرى :

﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ .. (٢١) ﴾ [المائدة]

فبعد أنْ حَدَّد لهم الأرض بموقع معين عاد فأطلق الكلمة ، ليدل على أنه قد شاء ألاَّ يكون لهم وَطَن ، وأنْ يظلُّوا مُبعثَرين ، ذلك أنهم رفضوا دخول الموقع الذى سبق وأنْ حَدَّده لهم وقالوا :

﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُوا فِيهَا .. (٢٤) ﴾ [المائدة]

---

(١) الأنام : ما ظهر على وجه الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجن والإنس . [لسان العرب ـ مادة : أنم] .

(٢) أى : من بعد إغراق فرعون . المقصود بالأرض هنا أرض الشام ومصر . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٠٦٧/٥) .

ولذلك قال الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ[1] فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

أى : جعلنا كل قطعة بما تحويه من تماسك متفرقة عن القطعة الأخرى ، وهذا هو حال اليهود فى العالم ؛ حيث يُوجَدُونَ فى أحياء خاصة بكل بلد من بلاد العالم ؛ فلم يذوبوا فى مجتمع ما .

وقوله الحق هنا :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا[2] مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد]

مُوجَّه إلى قريش ، فقد كانت لهم السيادة ومركزها مكة ، ثم من بعد ذلك وجدوا أن الموقف يتغيَّر فى كُلِّ يوم عن اليوم الآخَر ؛ ففى كل يوم تذهب قبيلة إلى رسول الله ﷺ فى المدينة لتعلنَ إسلامها وتبايعه .

وهكذا تنقص أمام عيونهم دائرة الكفر ، إلى أن أعلنوا هم أنفسهم دخولهم فى الإسلام .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن نقصتْ أرضُ الكفر ، وازدادتْ أرض الإيمان ، ورأَوْا ذلك بأنفسهم ولم يأخذوا عِبْرةً بما رأَوْه أمام أعينهم

(١) قطعناهم : فرقناهم فى الأرض أمماً أى طوائف وفرقاً . [لسان العرب - مادة : قطع] .

(٢) اختُلِفَ فى النقصان هنا على أقوال :

- قال ابن عباس : أو لم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض .

- وقال مجاهد وعكرمة : خرابها ونقصان الأنفس والثمرات .

- وقال ابن عباس ومجاهد فى رواية : موت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها .

قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٢٠) ثم قال : « والقول الأول أولى وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية . وهذا اختيار ابن جرير » .

من أن الدعوة مُمْتدة ، ولن تتراجع أبداً ، حيث لا تزداد أرض إلا بمكين فيها .

والمكين حين ينقص بموقعه من معسكر الكفر فهو يُزيد رُقْعة الإيمان ؛ إلى أنْ جاء ما قال فيه الحق سبحانه :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [النصر]

وهناك أناس مُخْلصون لدين الله ، ويحاولون إثبات أن دين الله فيه أشياء تدلُّ على المعاني التي لم تُكتشَفْ بعد ، فقالوا على سبيل المثال فَوْر صعود الإنسان إلى القمر : لقد أوضح الحق ذلك حين قال :

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ .. (٣٣) ﴾ [الرحمن]

وقالوا : إنه سلطان العلم .

ولكن ماذا يقولون في قوله بعدها :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن]

فهل يعني ذلك أنه أباح الصعود بسلطان العلم كما تقولون ؟

ولهؤلاء نقول : نحن نشكر لكم محاولة رَبْطكم للظواهر العلمية بما جاء بالقرآن ، ولكن أين القمر بالنسبة لأقطار السماوات

---

(١) الشواظ ـ بضم الشين وكسرها ـ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم: ٣٦١/١] .

والأرض ؟ إنه يبدو كمكان صغير للغاية بالنسبة لهذا الكون المُتَّسع ، فأين هو من النجم المسمَّى بالشِّعْرى(١) ، أو بسلسلة الأجرام المُسمَّاة بالمرأة المُسلْسَلَة ؟ بل أين هو من المَجَرَّات التى تملأ الفضاء ؟

وحين تنظر أنت إلى النجوم التى تعلوك تجد أن بينك وبينها مائة سنة ضوئية ، ولو كنت تقصد أن تربط بين سلطان العلم وبين القرآن ، فعليك أنْ تأخذ الاحتياط ، لأنك لو كنت تنفذُ بسلطان العلم لما قال الحق سبحانه بعدها :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ .. (٣٥) ﴾ [الرحمن]

وإنْ سألتَ : وما فائدة الآية التى تحكى عن هذا السلطان ؛ فهى قد جاءتْ لأن الرسول قد أخبر القوم أنه صعدَ إلى السماء وعُرِج به ، أى : أنه صُعِد وعُرِج به بسلطان الله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد]

وكلمة « أطراف » تدلنا على أن لكل شىء طُولاً وعَرْضاً تتحدد به مساحته ؛ وكذلك له ارتفاع ليتحدد حجمه . ونحن نعرف أن أىَّ طول له طرفان ، وإنْ كان الشىء على شكل مساحى تكون أطرافه بعدد الأضلاع .

وما دام الحق سبحانه يقول هنا :

---

(١) الشعرى : نجم ثابت فى السماء عُبِد قديماً عند بعض قبائل العرب ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ (٤٩) ﴾ [النجم] . [القاموس القويم : ١/٣٥٠] . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم : هو هذا النجم الوقاد الذى يقال له « مرزم الجوزاء » [تفسير ابن كثير ٤/٢٥٩] .

﴿ مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد]

أى : من كل نقطة فى دائرة المحيط تعتبر طرفاً . ومعنى ذلك أنه سبحانه قد شاء أنْ تضيق أرض الكفار ، وأنْ يُوسِّع أرض المؤمنين من كل جهة تحيط بمعسكر الكفر ، وهذا القول يدل على أنه عملية مُحْدَثة ، ولم تكن كذلك من قبل .

ويتابع سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .. (٤١) ﴾ [الرعد]

أى : أن الموضوع قد بُتَّ فيه وانتهى أمره .. ونحن فى حياتنا اليومية نقول : « هذا الموضوع قد انتهى ؛ لأن الرئيس الكبير قد عقَّب على الحكم فيه » .

ونحن فى القضاء نجد الحكم يصدر من محكمة الدرجة الابتدائية ، ثم يأتى الاستئناف ليؤيد الحكم أو يرفضه ، ولا يقال : إن الاستئناف قد عقَّب على الحكم الابتدائى ؛ بل يُقال : إنه حكم بكذا إما تأييداً أو رَفْضاً ؛ فما بالنا بحكم مَنْ لا يغفل ولا تخفى عنه خافية ، ولا يمكن أن يُعقِّب أحد عليه ؟

والمَثَلُ فى ذلك ما يقوله الحق سبحانه عن سليمان وداود عليهما السلام :

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ[1] إِذْ نَفَشَتْ[2] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ

(١) الحرث الذى نفشت فيه الغنم إنما كان كرماً (عنباً) فلم تدع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته . [تفسير ابن كثير : ١٨٦/٣] .

(٢) نفشت الغنم : إذا تفرقت فرعَتْ بالليل من غير علم راعيها ، ولا يكون النفش إلا بالليل . [لسان العرب ـ مادة : نفش] .

وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

وأصلُ الحكاية أن خلافاً قد حدث بسبب أغنام يملكها إنسان ؛ واقتحمتْ الأغنامُ زراعةَ إنسانٍ آخر ؛ فتحاكموا إلى داود عليه السلام ؛ فقال داود : إن على صاحب الأغنام أن يتنازل عنها لصاحب الأرض .

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - جالساً يسمع أطراف الحديث فقال : لا ، بل على صاحب الأغنام أن يتنازل عن أغنامه لصاحب الأرض لفترة من الزمن يأخذ من لبنها ويستثمرها ، وينتفع بها إلى أن يزرع له صاحب الغنم مثلَ ما أكلتْ الأغنام من أرضه[1] .

وقال الحق سبحانه :

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

وهذا هو الاستئناف ، ولا يعنى الاستئناف طَعْنَ قاضٍ فى القاضى الأول ؛ لكنه بَحْثٌ عن جوهر العدل ؛ ولعل القضية إنْ أُعيدَتْ لنفس القاضى الأول لَحكَم نفس الحكم الذى حكم به الاستئناف بعد أن يستكشف كل الظروف التى أحاطتْ بها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ .. (٤١) ﴾ [الرعد]

---

(١) انظر فى هذا تفسير ابن كثير (٣/١٨٦) . والدر المنثور للسيوطى (٥/٦٤٥) .

ولحظة أن يُصدِر الله حُكْماً ؛ فلن يأتى له استئناف ، وهذا معنى قوله الحق :

﴿ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد]

وكأن هذا القول الحكيم يحمل التنبؤ بما أشار به القضاء بإنشاء الاستئناف ؛ ولا أحد يُعقِّب على حُكْم الله ؛ لأن المُعقِّب يفترض فيه أن يكون أيقظَ من المُعقَّب عليه ؛ وعنده قدرةُ التفات إلى ما لم يلتفت إليه القاضى الأول ، ولا يوجد قَيُّوم إلا الله ، ولا أَحَدَ بقادر على أن يعلم كل شىء إلا هو سبحانه .

وآفة كل حُكْم هو تنفيذه ؛ ففى واقعنا اليومى نجد مَن استصدر حُكْماً يُعانى من المتاعب كى يُنفِّذه ؛ لأن الذى يُصدِر الحكم يختلف عَمَّنْ ينفذه ، فهذا يتبع جهة ، وذاك يتبع جهة أخرى .

ولكن الحُكْم الصادر من الله ؛ إنما يُنفَّذ بقوته سبحانه ، ولا يوجد قوىٌّ على الإطلاق سواه ، ولذلك يأتى قوله الحق :

﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد]

فكأن الله يُنبِّهنا بهذا القول إلى أن الحكم بالعدل يحتاج إلى سرعة تنفيذ .

ونحن نرى فى حياتنا اليومية : كيف يُرْهق مَنْ له حكم بحقٍّ عادل ؛ ولو أننا نُسرِع بتنفيذ الأحكام لَسادَتْ الطمأنينةُ قلوبَ أفراد المجتمع .

ونحن نجد استشراء العصبيات فى الأخذ بالثأر إنما يحدث بسبب

الإبطاء فى نظر القضايا ؛ حيث يستغرق نظر القضية والحكم فيها سنوات ؛ ممَّا يجعل الحقدَ يزداد . لكن لو تَمَّ تنفيذ الحكم فَوْرَ معرفة القاتل ، وفى ظل الانفعال بشراسة الجريمة ؛ لَمَا ازدادتْ عمليات الثأر ولَهدأت النفوس .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ[1] ﴿٤٢﴾ ﴾

وهنا يخبر الحق سبحانه رسوله ، وأىُّ سامع لهذا البلاغ يستقرىء موكب الرسالات السابقة ؛ وسيجد أن كُلَّ أمة أُرسل لها رسول مكرتْ به وكادتْ له كي تبطل دعواه ، ولم ينفع أى أمة أىّ مكر مكرتْه أو أىّ كَيْدٍ كَادَتْهُ ، فكُلُّ الرسالات قد انتصرتْ .

فسبحانه القائل :

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة]

وهو القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

---

(١) عقبى الدار : أى عاقبة دار الدنيا ثواباً وعقاباً ، أو لمن الثواب والعقاب فى الدار الآخرة ، وهذا تهديد ووعيد . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥/٣٦٧٢] .

والحق سبحـانه حين يُورد حُكْماً فبـالقرآن ؛ وهو الذى حفظ هذا القرآن ؛ فلن تأتى أيُّ قضية كَونية لتنسخ الحكم القرآنى .

وأنت إذا استقرأتَ مواكب الرسل كلها تجـد هذه القضية واضحة تماماً ؛ كـما أثبتهـا الحق سبحانه فى الـقرآن المحفوظ ؛ ومـا حفظه سبحانه إلا لوثوقه بأن الكونيات لا يمكن أن تتجاوزه .

وبالفعل فـقد مكرتْ كُلُّ أمـة برسولهـا ؛ ولكن الحق سبـحانه له المكر جميعاً ؛ ومكْر الله خَيْرٌ للبشرية من مكْر كل تلك الأمم ؛ ومكْره سبحانه هو الغالب ، وإذا كان ذلك قد حدث مع الرسل السابقين عليك يا رســول الله ؛ فالأمـر معك لابُدَّ أنْ يخـتلفَ لأنك مُـرْسَلٌ إلى الناس جميعاً ، ولا تعقيبَ يأتى من بعدك .

وكُلُّ تلك الأمور كانت تطمئنه ﷺ ؛ فلا بُدَّ من انتصاره وانتصار دعوته ؛ فسـبحانه محيط بأىِّ مَـكْر يـمكره أىُّ كائن ؛ وهو جَلَّ وعلاَ قادر على أنْ يُحبط كل ذلك .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) ﴾

[الرعد]

والحق سبـحانه يعلم ما يخـفى عن الأعين فى أعـماق الكائنات ؛ خَيْـر هو أو شَـرٌّ ، ويحمى مَنْ شـاءَ من عبـاده من مكْر الماكـرين ، ويُنزِل العقاب على أصحاب المكْر السيء بالرسل والمؤمنين .

ولَسـوفَ يعلم الكافرون أن مـصيـرهم جـهنم ، وبئس الدار التى يدخلونها فى الـيوم الآخر ؛ فَضْـلاً عن نُصْرة رسـوله ﷺ فى الدنيا وخِزْيهم فيها .

وهكذا يكونون قد أخذوا الخزْى كجزاءٍ لهم فى الدنيا ؛ ويزدادون علْماً بواقع العذاب الذى سَيلقَوْنَهُ فى الدار الآخرة .

ويُنهى الحق سبحانه سورة الرعد بهذه الآية :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

ونفهم من كلمة :

﴿ لَسْتَ مُرْسَلاً .. (٤٣) ﴾ [الرعد]

أن الكافرين يتوقفون عند رَفْض الرسول ﷺ ؛ وكأن كُلَّ أمانيهم أن يَنْفُوا عنه أنه رسولٌ اصطفاه الحق سبحانه بالرسالة الخاتمة ؛ بدليل أنهم قالوا :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

ومن بعد ذلك قالوا :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

أى : أن فكرة الإرسال لرسول مقبولة عندهم ، وغير المقبول عندهم هو شخص الرسول ﷺ .

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾

[الرعد]

والشهيد كما نعلم هو الذى يرجح حُكْم الحق ، فإذا ما ظهر أمر من الأمور فى حياتنا الدنيا التى نحتاج إلى حُكْم فيها ؛ فنحن نرفع الأمر الذى فيه خلاف إلى القاضى ، فيقول : « هاتوا الشهود » .

ويستجوب القاضى الشهود ليحكمَ على ضَوْء الشهادة ؛ فَما بالُنا والشاهد هنا هو الحقُّ سبحانه ؟

ولكن ، هل الله سيشهد ، ولِمَنْ سيقول شهادته ؛ وهم غَيْرُ مُصدِّقين لكلام الله الذى نزل على رسوله ﷺ ؟

ونقول : لقد أرسله الحق سبحانه بالمعجزة الدَّالة على صدْق رسالته فى البلاغ عن الله ، والمعجزة خَرْقٌ لنواميس الكون .

وقد جعلها الحق سبحانه رسالةً بين يدى رسوله وعلى لسانه ؛ فهذا يعنى أنه سبحانه قد شهد له بأنه صادق .

والمعجزة أمْر خارق للعادة يُظهرها الله على مَنْ بلغ أنه مُرْسَل منه سبحانه ، وتقوم مقام القول « صدق عبدى فيما بلغ عنِّى » .

وإرادة المعجزة ليست فى المعنى الجزئى ؛ بل فى المعنى الكُلِّىّ لها . والمثل فى المعجزات البارزة واضح ؛ فها هى النار التى ألْقَوْا فيها إبراهيم عليه السلام ، ولو كان القَصْدُ هو نجاته من النار ؛ لكانت هناك ألفُ طريقة ووسيلة لذلك ؛ كأنْ تُمطِر الدنيا ؛ أو لا يستطيعون إلقاء القبض عليه .

ولكن الحق سبحانه يوضح لهم من بعد أن أمسكوا به ، ومن بعد أن كبّلوه بالقيود ، ومن بعد أن ألقوْه فى النار ؛ ويأتى أمره بأن تكون النار برداً وسلاماً عليه فلا تحرقه :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا غيّر الحق سبحانه الناموس وخَرَقه ؛ وذلك كى يتضح لهم صدْق إبراهيم فيما يبلغ عن الله ؛ فقد خرقَ له الحق سبحانه النواميس دليلَ صحة بلاغه.

وإذا كان الحق سبحانه قد قال هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا[1] بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.. (٤٣) ﴾ [الرعد]

وشهادة الحق سبحانه لرسوله بصدق البلاغ عنه ؛ تتمثل فى أنه ﷺ قد نشأ بينهم ، وأمضى أربعين عاماً قبل أن ينطق حرفاً يحمل بلاغة أو خطبة أو قصيدة ، ولا يمكن أن تتأخرَ عبقرياتُ النبوغ إلى الأربعين .

وشاء الحق سبحانه أن يجرى القرآن على لسان رسوله فى هذا العمر ليبلغ محمد ﷺ الناسَ جميعاً به ، وهذا فى حَدِّ ذاته شهادة من الله .

---

(١) أى : حسبى الله ، هو الشاهد علىّ وعليكم ، شاهد علىّ فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان . قاله ابن كثير فى تفسيره (٥٢١/٢) .

ويضيف سبحانه هنا :

﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

والمقصود بالكتاب هنا القرآن ؛ ومَـنْ يقرأ القرآن بإمعان يستطيع أن يرى الإعجاز فيه ؛ ومَنْ يتدبر ما فيه من مَعَانٍ ويتفحَّص أسلوبه ؛ يجده شهادة لرسول الله ﷺ .

أو يكون المقصود بقوله الحق :

﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

أى : هؤلاء الذين يعلمون خـبر مَقْدم رسـول الله ﷺ من التوراة والإنجيل ؛ لأن نعـت رسول الله ﷺ وصفـته مذكـورة فى تلك الكتب السابقـة على القرآن ؛ لدرجة أن عبـد الله بن سلام[1] ، وقد كان من أحبار اليهود قـال : « لقد عرفتُ محمداً حين رأيته كـمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمُحمد أشد »[2] .

ولذلك ذهب إلى رسـول الله ﷺ وقال له : يا رسـول الله إن نفسى مالتْ إلى الإسلام ، ولكن اليـهود قوم بُهْتٌ[3] ، فإذا أعلنتُ إسـلامى ؛ سيسبُّوننى ؛ ويلعنونى ، ويلصقون بى أوصـافاً ليست فىّ . وأريد أنْ

---

(١) هو : عـبدالله بن سـلام بن الحارث الإسـرائيلى ، أبو يوسف : صـحابى أسلم عند قـدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه «الحصين» فسـماه رسول الله ﷺ عبدالله . وشـهد مع عمر فتح بيت المقدس . أقام بالمدينة إلى أن توفى عام ٤٣ هـ . (الأعلام للزركلى ٤/ ٩٠).

(٢) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾ [البقرة] .

(٣) البُهْـت : الكذب . وباهته : اسـتقبله بأمـر يقذفـه به ، وهو منه برىء لا يعلمـه . [لسان العرب ـ مادة : بهت] .

تســألهم عنِّى أولاً . فأرسل لهـم رسول الله يدعـو صناديدهم وكبـار القوم فيهم ؛ وتوهموا أن محمداً قد يلين ويعدل عن دعوته ؛ فجاءوا ، وقال لهم ﷺ : « ما تقـولون فى ابن سلام ؟ »[1] فأخذوا يكيلون له المديح ؛ وقالوا فيه أحسن الكلام .

وهنا قـال ابن سلام : « الآن أقول أمـامكم ، أشهـد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » ، فأخـذوا يسبُّون ابن سلام ؛ فقال ابن سلام لرسول الله ﷺ : ألم أقُلْ إن يهود قوم بهت ؟

ونعلم أن الذين كـانوا يفـرحون من أهل الكتـاب بمـا ينزله الحق سبحانه على رسول الله ﷺ من وحى هم أربعون شخصاً من نصارى نجران ؛ واثنان وثلاثون من الحبشة ؛ وثمانية من اليمن .

ونعلم أن الذين أنكروا دعوة رسول الله ﷺ كانوا ينهوْنَ بعضهم البعض عن سماع القرآن ؛ وينقل القرآن عنهم ذلك حين قالوا :

﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا[2] فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]

وهذا يعنى أنهم كـانوا متـأكدين من أن ســماع القـرآن يُؤثِّر فى النفس بيقظة الفطرة التى تهفو إلى الإيمان به .

أمـا مَنْ عندهم عِلْم بـالكتب الســابقـة على رســول الله ﷺ فــهم يعلمون خبر بعثته وأوصافه من كتبهم .

---

(١) أخرجـه البخارى فى صحـيحه (٣٩٣٨) ، وأحمـد فى مسنده (٣/١٠٨ ، ٢٧١، ٢٧٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) الغوا فـيه : أى شوْشوا على قـارئه باللغو من القول ، أو اطعنوا فـيه واختلقوا له العـيوب لتصرفوا الناس عنه . [القاموس القويم : ٢/١٩٦] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾

[البقرة]

ويقول أيضاً :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾

[البقرة]

سُورَةُ إبْرَاهِيمَ

